AL-'ABQARI العبقري
USIM
ISSN 2232-0431 / e-ISSN 2504-8422
UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA

VOL. 10 (MAY) 2017: pp 113-126
Journal of Islamic Social Sciences and Humanities
مجلة الثقافة الإسلامية والإنسانية

Submission date: 30/11/2016 Accepted date: 23/03/2017

مفهوم النص في التراث العربي: خطوة في تكامل المنهج النقلي والعقلي

Text Concept in the Arab Heritage:
Towards the Integration of Naqli and Aqli Approach[1]

Ayad Abdullah[a2] and Zena Al-Obaidi[b3]

[a]Universiti Sains Islam Malaysia,
[b]Canadian College of Educators, Mississauga, Canada

ayad@usim.edu.my

الملخص

منذ القدم اهتم النحاة العرب بالقواعد نحواً وصرفاً؛ مما أدى إلى تركيز الدراسات في مستوى الكلمة والجملة. فانتمت الجملة كلية إلى النحو وتحددت بالقواعد، رغم تعدد العلاقات بين جملة وأخرى. لذلك ظل نحو الجملة يحتل مكانة رفيعة في الدراسات اللغوية. إذ لم تكن النصوص عند الأقدمين تدرس لذاتها بوصفها علماً مستقلاً. لكننا نجد جذور النص ممتدة في البلاغة العربية، وفي أعمال علماء تفسير القرآن، الذين نهجوا فكرة النص قبل أكثر من ألف سنة من ظهور اللسانيات الحديثة. لذلك فالهدف الرئيس يكمن في مدى معرفة وممارسة البلاغيين العرب القدامى النص؛ بوصفه بناءً لغوياً متماسكاً ومنسجماً، يتسم بسمات تركيبية تجعل منه كيانا مميزاً. وباعتماد المنهج الوصفي التحليلي؛ أكدت النتائج أنّ جذور النص تمتد عميقاً في البلاغة العربية، وأنَّ العلماء العرب القدماء كانوا على قدر كبير من الوعي والمعرفة والدقة في التعامل مع القضايا اللغوية، عندما تعاملوا مع النص وأبدعوا في فهم قوانين اللغة. وهذا مؤشر حول نجاعة النهج الذي تتبعه جامعة العلوم الإسلامية الماليزية في اعتماد تحقيق التكامل بين علوم التراث والعلوم المعاصرة.

كلمات مفتاحية: اللغة العربية، النص، التراث.

[1] Acknowledgement: This article is a part of the research entitled "Applications of Text Grammar Theory on the Qur'an: A Critical Study on Selected Thesis and Articles". Funded by: Research Management Centre at Universiti Sains Islam Malaysia (USIM), Grant No. PPP/ USG-0115/FPBU/ 30/11515. Therefore, the researchers appreciate the great support of the PPP.
[2] Senior lecturer, Faculty of major Languages Studies, Universiti Sains Islam Malaysia.
[3] Methodology Instructor, Canadian College of Educators, Mississauga, Canada.

Abstract

Over one thousand years ago, the ancient Arab grammarians expressed their interest in Arabic Grammar and Morphology; their studies were concentrated on words and sentences. Therefore the Sentence remained in a high position at the Language Studies. The main objective is to investigate the Arab heritage knewledge on texts semantically according to coherent and cohesion terms along with its special features at text level. Adoption of descriptive analytical approach, the findings revealed that: the text has its roots in the history of Arabic rhetoric; the ancient Arab scholars were on a great deal of precision in dealing with texts' linguistic issues, when they understood the phenomenon of language comprehension and its laws. This is an indication that the approach adopted by the University in the integration of heritage sciences and contemporary sciences is highly significant.

Keywords: Arabic Language, text, heritage.

المقدمة:

عندما نمعن النظر في التراث اللغوي والأدبي العربي، ونتفحص جهود علماء اللغة الكبار في التراث العربي والإسلامي أمثال الخليل بن أحمد (ت. 175) وسيبويه (ت. 180) نجد أنّ النحاة القدامى قد أبدعوا في دراسة الجملة العربية التي عرفت بكونها: "أقلّ قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بالفهم سواء أتركّب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر" (أنيس، إبراهيم د.ت: 191)، عبر دراسات مستفيضة من الناحية الوضعية، في سياق عنايتهم بالنحو والصرف والإعراب تنظيراً وتقعيداً، فصاغوا قواعد الجملة، واستقصوا أنماطها. لكنّ المنظرين الأوائل وقفوا في دراساتهم وتحليلاتهم عند حدود الجملة ولم يتجاوزوها (بوترعة، عبد الحميد 2012).

لقد اهتم النحاة العرب بظاهرة الإعراب بشكل مسرف؛ مما أدى إلى تركيز الدراسات الصرفية والنحوية على الكلمة سواء كانت اسما، أم فعلا، أم حرفا، وكذلك الجملة؛ على حساب ونصيب البنى الأكبر التي تتجاوز الكلمة والجملة. ومن اللافت للنظر أننا لا نعثر على كلمة "جملة" في كتاب سيبويه؛ الذي اسماها "كلاماً يحسن أنْ يسكت المتكلم عند انتهائه. فلا نجد الجملة إلا في كتاب المقتضب للمبرد (صالح، عبد الرحمن 1993. ص: 8). ولم تكن النصوص عند الأقدمين تدرس لذاتها بوصفها علمًا مستقلاً، بل كانت تجري ضمن علوم الدرس اللغوي العديدة؛ مثل النحو، والصرف، والبلاغة، والنقد، وفقه اللغة. فانتمت الجملة كلية إلى النحو وتحددت بمعيار القواعد. وتعددت العلاقات بين جملة وأخرى داخل النص.

لذلك تربع نحو الجملة في مكانة رفيعة، لما له من أهمية كبيرة في إدراك المعنى وفهم السياق، وظل مهيمنا على الدراسات اللغوية قرونا طويلة.

من ناحية أخرى فإن جهود المفسرين الأوائل كانت تتسم بطابع مميز خالفوا فيه نمط الدراسات اللغوية والأدبية، حين انتهجوا مفهوم النص في تفسير القرآن الكريم. فكانت عناية الحضارة الإسلامية بالنص معروفة حتى قال بعض الدارسين: "إن الحضارة اليونانية هي حضارة العقل، أما الحضارة العربية الإسلامية فهي حضارة "النص" (أبو زيد، نصر حامد 1994. ص: 11). وتتجلى تلك العناية في تعامل المفسرين الأوائل مع القرآن الكريم بوصفه نصاً متكاملاً، متماسكاً ومنسجماً. يقول المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس: "إنّ في الإسلام سنداً هامّاً للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة، على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية التي انزوت تماماً بين جدران المعابد، فقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوةً ونماءً" (الجندي، أنور 1982، ص: 301).

استمر نحو الجملة حتى مطلع القرن العشرين؛ حين نشأت اللسانيات في الغرب، على أنقاض فقه اللغة. فقامت بديلاً منه، تقرره بالكسب ثم تنقضه حين تتجاوزه بقفزة معرفية في المنهج العلمي. فمادة فقه اللغة وعلم اللسان واحدة؛ هي الظاهرة اللغوية، لكن المنهج مختلف (المسدي، عبد السلام 1982، ص:7). فاتحدت المادتان وافترقت المناهج؛ فتباينت الموضوعات واختلفت التصنيفات مما أدى إلى افتراق المضمون المعرفي وتنوع النتائج. فاستقل كل من العلمين بأسسه المعرفية والمنهجية. ومنذ مطلع القرن العشرين وحتى بداية النصف الثاني منه، ساد الدرس اللغوي اتجاهان؛ الأول، الاتجاه الداخلي الذي يركز على دراسة التراكيب اللغوية، وضرورة أن يكون المدخل إلى عالم النص مدخلا لغويا. أما الثاني فيركز على ما موجود خارج النص مثل: حياة المبدع وسيرته، والظروف المحيطة بالنص وصاحبه، وتأثير المجتمع في النص. وهو ما اطلق عليه الموقف اللغوي (عفيفي، أحمد. 2001).

لقد تعددت بحوث اللسانيات، وتعددت أغراضها ومقاصدها تبعاً لتعدد مناهجها، فتجاوزت حدودها، حاملة معها تجديدا على المستويين: النظري والتطبيقي. وقد تلقى العرب هذا العلم الجديد؛ وراحوا يدرسون أسسه ومناهجه ترجمة واقتباساً وتنظيراً. وقاموا بتطبق مناهجه على

لغتهم في مجال الدراسات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية (مغمولي، إسماعيل 2004). ثم طفقت الدراسات اللسانيات في المغرب العربي ومشرقه تتعدد وتتكاثر مشكِّلةً ملامح خطاب لساني عربي موضوعا وعلما مستقلا.

ومما لا شكّ فيه أنّ سياق التطور النظري للسانيات الحديثة، قد أفرز ثلة من المصطلحات والمفاهيم، التي تسارع نموها وانتشارها في الأوساط البحثية الغربية. وكان لهذا المشهد أثره في توجيه الكتابة اللسانية العربية، في عرض النظريات والتمثيل لها في اللغة العربية. أو على الصعيد التعليمي الذي حاول استيعاب المعرف اللسانية الحديثة وتبسيطها للقارئ العربي (بوقرة، نعمان 2008). إلا إنّ تعريب تلك المصطلحات الغربية كان مشكلة واجهت المصطلح العربي، نظرا لتعدد تلك التسميات (مقال للباحث، 2016).

وقد عدت اللسانيات بمختلف مجالاتها البحثية؛ الموضوع المفضل بالنسبة إلى اللسانيين العرب، فكثرت الأبحاث التعريفية بالعلم بهدف تيسيره. وإذا كانت الدراسات اللسانية العربية الحديثة قد بذلت جهدا بينًا في المغرب العربي ولبنان؛ فإن ما بذل من جهود لا يمكن أن يحقق الطموح في نضج هذا العلم واكتشافه والمشاركة الفعلية فيه، وعقد صلة حميمة بينه وبين المثقف العربي، لكي يتذوق هذا العلم الحديث ويلم به (يوسف، أحمد. 2008. ص:258). لذلك أدرك اللسانيون العرب أهمية هذا العلم وضرورة الإلمام بأسبابه إلماما واسعا، والإحاطة بنتائجه إحاطة شاملة، بغية تقويم العمل اللغوي العربي القديم (الكشو، صالح. 1985. ص: 5). ولعلّ تراكُم الكتاباتِ النصيّة العربيّة اليومَ، سيُفضي إلى إيجاد أدبياتٍ نصيّة غنيّةٍ ومتطوّرَة ومتعدّدَة المِجالاتِ والأجناسِ النصيّة التّطبيقيّة، تعدداً يُشبِه تعدّد مجالاتِ التطبيقِ عند العلماءِ قَديماً.

إذن لا بد لنا أن نتمعن في فن المقاربة والجمع بين العلم النقلي المتمثل في أصالة التراث الإسلامي الخالد "تراثية المقروء"، والعلم العقلي المعاصر –المنضبط– أيا كانت مشاربه ويمثل "القراءة المعاصرة". بهدف مقاربة العلوم التراثية مقاربةً جديدة بأدوات ومناهج حديثة. وتتوق توقها الخاص إلى إضاءة هذه العلاقة وإشباعها في مقاربة ذات أبعاد متعددة تتنوع فيها أدوات التحليل وزوايا النظر المنهجي، كي تحقق نوعاً من الاستقصاء والشمول، عن طريق التكامل المستمر بين اللغة والعلم والفلسفة، والحوار بينها بوصفها منظورات معرفية، وعبر التفاعل الدائب بين التحليل الأسلوبي، والاكتناه العلمي، والتأويل الفلسفي (منير، وليد

1418هـ/1997م)؛ بوصفها طرائق لفهم والشرح والتفسير. من أجل الارتقاء بأمهات العلوم الإسلامية وفق أحدث المعطيات والطروحات العلمية.

لذلك جاءت فلسفة جامعة العلوم الإسلامية الماليزية؛ في منهج التكامل بين العلوم النقلية والعلوم العقلية، هذه الفلسفة تبعث العلوم النقلية التراثية من جديد وتبث فيها الحياة، بدلاً من الركود الذي تعوم فيه؛ نتيجة الوقوف عند الحدود الأولى، دون تجشُّم البحث في سبُل تطويرها وتوسيع مجالاتها، للانتقال بها إلى مصاف العلوم والمعارف الحديثة. وفق هذه الفلسفة يصبح النقلي والعقلي أمران متلازمان بحاجة إلى مقاربة علمية بينهما: "فإنَّ من ينشد الأصالة بدون المعاصرة، كمن ينشد المعاصرة بدون الأصالة، الأول مقلِّد والثاني تابع، بل كلاهما تابع ومقلِّد" (الجابري، محمد عابد 1991: 60). وهذا دليل على جدوى المنهج الرصين الذي حددته وانتهجته الجامعة في فلسفتها.

مشكلة البحث:

كثُرت الكتاباتُ العربيّة في لسانيات النص أو علمِ النّصّ، وأسهمْتَ بحظ وافرٍ في الحديث عن جذورِ هذا الفنّ في اللغويّاتِ العربيّة القَديمَة وما حولَها من ثقافة بلاغيّة ونحويّة وأصوليّة، وعن امتداد جذوره في لسانيات النص عند العربِ القدماء. ويبدو أنّ تعاملَ اللسانيين العرب أو الباحثين في لسانيات النص وتحليل الخطاب العَرب، حديث عهدٍ بهذا الفنّ من جهة المنهج والنظريات والمفاهيم. غير أنّ أكثرَهُم يشعرُ بأنّه فنّ قديمٌ جديدٌ، غريبٌ مألوفٌ، نظراً لأنّ هذا العلم الجديد وهذه الثّقافةَ الجديدَةَ عند العربِ المعاصرينَ لَها نظائرُ في التراثِ العربي.

ففي عصرنا الحاضر أسهمت الكتابات العربيّة في لسانيات النص وعلمِ لغة النّصّ، بحظ وافرٍ في تطوير الدراسات اللغويّةِ العربيّة الحَديثة. ويبدو أنّ اللسانيين العرب أو الباحثين في لسانيات النص العَرب حديثو العهد في تعاطيهم لهذا الفنّ من جهة المنهج والنظرية والمفاهيم. لذلِك كتب كثيرون في لسانيات النص؛ حين استعرضوا المناهج والآراءَ الغربيّةَ، ثمّ اتبعوها بنصوص عربيّةٍ توافَرَت فيها شروط الاستجابَة لتلك المناهج (بودرع، عبد الرحمن.2007). فمنهم مَن بحثَ في فنّ المداخَلات، ومنهم مَن بحثَ في نصوص بعض المفسّرينَ، ومنهم مَن طبّقَ بعض المفاهيم النصية على أشعارِ الشّعراءِ ، وكثيرٌ منهم استلهَمَ أفكاراً لبعض علماءِ اللغة والبلاغَة والتّفسير، مثل عبدِ القاهِرِ الجُرجانيّ.

كان التراث في العلوم النقلية، الأساس الفعلي الذي بنيت عليه الاتجاهات النصية؛ بكل ما تتسم به من تشعب في أفكارها وتصوراتها. وقدمت دراسات خاصة بأجزاء الجملة ومتواليات الجمل وما يختص بنحو الجملة. وعندما وجدوا قصور نحو الجملة في تفسير بعض الظواهر؛ عمدوا إلى الإشارة إلى وحدة أكبر من الجملة يمكن أن تكون وحدة النص (سرايعة، ياسين 2007. ص: 6). لذلك تنحصر المشكلة في الإجابة عن سؤال رئيس هو: هل عرف التراث العربي النص؛ بوصفه بناء لغويا متماسكاً ومنسجماً وفق نسق خاص، يتسم بسمات تركيبية تجعل منه كيانا مميزاً؟

النص في التراث البلاغي والنقدي:

حين نتتبع كلمة "نص" في التراث العربي، نجد أنها استعملت بدلالة رفع الشيء، ثم تطورت إلى رفع الكلام إلى منشئه الأصلي بصيغته الأصلية، وهي دلالة مترسخة في اللغة العربية منذ عصر ما قبل الإسلام (شاهين، عبد الخالق فرحان 2012). يقول طرفة بن العبد (ت. 564م) من المتقارب (ديوان طرفة بن العبد: 94):

ونصَّ الحديث إلى أهله فإنَّ الوثيقةَ في نصّه

قد تطور المفهوم الدلالي لكلمة "نص" في اللغة العربية، بعد ذلك حين اطلقت على الكتاب والسنة إجمالاً، بغض النظر عن وضوح المعنى وقطعيته، ثم تطورت إلى إطلاقها على كلام الفقهاء (الزبيدي، تاج العروس 9/ 370).

لقد سعى القدماء في الوصول إلى قيم فنية أثناء دراستهم للنصوص وتحليلها ونقدها، حين لم يكن البحث اللغوي واقفا عند حد الجملة كما يحلو لبعض الباحثين المحدثين تصويره؛ لكنهم لم يبحثوا النص بمفهومه المعاصر. إنّ ما جاء في التراث اللساني العربي يثبت أن العلماء العرب القدامى يحملون من الوعي المتعّلق بدراسة النصوص ما يجعلهم من المؤسسين الحقيقيين للدراسة النصية كما هي عليه الآن؛ فيما يسمى بنحو النص أو لسانيات النص وتحليل الخطاب. وبخاصة ما تعّلق بمحاور الإحالة الكلامية وبناء النصوص ودلالاتها على مستوى العلامات اللغوية وأركان الجملة وآليات التخاطب ووظائف اللغة. وما تعّلق بدراستهم لضوابط الربط الفكري والانسجام المتعّلق بالتشكيل اللغوي، في مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية، والجانب

الإعلامي الإخباري في النص، والقصد والمقام وعلم المخاطب؛ وكّلها عناصر ذات أهمية في الدراسات النصية في عصرنا الحاضر (إبرير، بشير 007: 118).

في التراث اللساني العربي، عرف النحاة العرب المسلمون النص، وغاصوا في تحليلاته. إذ ادركوا مفهوم النص من خلال منظومة مفاهيمية متناسقة منسجمة مثل: الجملة والكلام والاتساع في الكلام والبيان بأنواعه، والخطاب والتبليغ. وحين لم يستعمل البلاغيون القدماء مصطلح "نص"؛ فلأن مفهومه كان مشغولا بواحد من تلك المصطلحات. فقد كان قائمًا في صدورهم متصوراً في أذهانهم مختلجًا في نفوسهم متصلاً بخواطرهم وتفكيرهم (إبرير، بشير 2007ص: 117). فتلك هي المصطلحات التي حملت دلالة النص وتقاطعت معه في بعض جوانبه وحواشيه مثل مصطلح الكلم، والكلام، والكلمة.

يقول الرضي الاستراباذي (ت. 686) (1419هـ: 31): "الفرق بين الكلام والجملة أن الجملة ما تضمن الإسناد الأصلي سواء كانت مقصودة لذاتها أم لا... والكلام ما يضمن الإسناد الأصلي وكان مقصودا لذاته، فكل كلام جملة ولا ينعكس".

ولهذا نجد أنّ دلالة النص هنا لا تخدم إلا غرضاً فقهياً تفسيرياً، ليصبح مصطلحاً له ميدان اشتغال جديد؛ هو علم الأصول يتجول فيه بحرية، إذ يرد بمعنى الدليل الشرعي، ومعروف أنه لا اجتهاد في موضع النص، أي القرآن الكريم لئلا يختلف المسلمون في أمور دينهم في الفرائض والعبادات، وأمور دنياهم في الحقوق والواجبات. فالنص هو المرجع الوحيد الواضح الذي تستنبط منه أدلة الأحكام (الصكر، حاتم 1997: 211).

أما مفهوم النص في اصطلاح القدماء فلم يوله اهتماما يُذكر سوى علماء الأصول (عبد الكريم، جمعان 2007). إذ عرف العرب القدماء النص وأدركوا دوره. وفي الأدب العربي إشارات عديدة ترشدنا إلى ما يؤكد أن النص غير متناه في الإنتاج والحركة، وقابل لكل زمان ومكان؛ لأن فاعليته متولدة من ذاتيته النصية. ولقد أشارت كتب الأدب العربي إلى ممارسات نصية عديدة بخصائص ومميزات تختلف بين العصور الأدبية. يمكن أن نبحث عن مفهوم النص في التراث من خلال التطرق إلى جملة من المفاهيم مثل: الجملة والكلام والقول والتبليغ والخطاب والنظم، وكّلها مفاهيم أساسية في النظرية اللغوية العربية عامة، والأسس النظرية المكونة للنص بشكل خاص.

ويوجد من يميز بين الجملة والكلام مثل رضي الدين الاستراباذي (ت. 686 هـ) وابن هشام الأ نصاري (ت. 761 هـ) فالكلام عنده هو القول المفيد بالقصد، والجملة عبارة عن الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر وما كان بمنزلة أحدهما. وفي البلاغة العربية، برزت النظرة الشمولية إلى النص لدى غير واحد من البلاغيين. فعبد القاهر الجرجاني (ت. 471 هـ) دعا إلى النظرة الشمولية، التي تمكن القارئ من الوقوف على جماليات النص الأدبي. فالقارئ لا يستطيع أن يحكم على المزية من قراءة البيت أو الأبيات الأولى، وإنما يقتضيه هذا النظر والانتظار حتى يقرأ بقية الأبيات. وقد لا يستطيع أن يقف على أسرار النص ما لم يستفرغ جهده في تأمل القطعة الأدبية كاملة، وبعد ذلك يستطيع أن يتبين المزايا التي تجعله يقف على ما فيها من براعة النقش وجودة التصوير والتعبير. وذلك يعني التعامل مع النص بشكل كامل.

أما دلالة "نص" عند أغلب الأصوليين، فلعل الإمام الشافعي (ت 204 هـ) رحمه الله، كان أول من تطرق إلى مفهوم النص في نظريته عن البيان. فيعرّف النص على أنه: "خطاب يعلم ما أريد به من الحكم سواء كان مستقلا بنفسه، أو العلم المراد به غيره نافيا الاجتهاد" (الشافعي، الرسالة د.ت ص14). ثم ذكر عن النص أنه: "ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره" (الشافعي، الرسالة، ص: 32). وعرّف الشريف الجرجاني (ت. 816هـ) النص بقوله: "النص ما ازداد وضوحًا على المعنى الظاهر لمعنى في نفس المتكّلم وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى. كما يقال أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي ويغتم بغمي، كان نصًا في بيان محبته. وأنه ما لا يحتمل إلا معنى واحدًا وقيل ما لا يحتمل التأويل (الشريف الجرجاني، التعريفات: 310). وهنا يجري التأكيد على النص القرآني. فدلالة نص تحيل دائما على البروز والظهور، وتستبعد التأويل، وتلغي أي دلالة مستترة قد يتضمنها المفهوم. وكان ظهور مصطلح النص في الثقافة العربية؛ متصلا بأدلة الأحكام من قرآن وحديث. حين ساهم اللغويون العرب القدامى في تجلية مصطلح الخطاب؛ بما ساقوه من مفاهيم اصطلاحية متقاربة. فقد ماثلوا به مصطلح الكلمة والكلام. كما توجد إشارات مصطلحية أخرى تبين هذا الدال (العياشي، عبوب 2010).

يقول الفقي، صبحي إبراهيم (2000: 50): "إنّ موقف البلاغيين كان غير موقف النحاة، فقد انطلقت مباحث عديدة في علم البلاغة من منطلق المعالجة النصية مثل الإيجاز والفصل والوصل وغيرها. بل إنّ نظرية النظم نفسها أكدت التظام والاتساق بين الكلمة الأولى والثانية

الثالثة إلى نهاية المعنى المراد". والحقيقة أن هناك إشارات واضحة البيان؛ عندما سعى المفسرون القدماء إلى تفسير القرآن بالقرآن. فنجد بعض أصول نحو النص في تأويلات المفسرين لآيات القرآن الكريم، عند تفسير القرآن بوصفه نصا كليا تكامليا يفسر أوله آخره، ويسهم مفصله في إيضاح ما أجمل من مفرداته وتراكيبه، ويعول على الظاهر من ألفاظه وجمله في تقدير ما حذف من حروفه و ألفاظه وعباراته. وقد تجلى ذلك في مجال ظاهرة الحذف والتقدير في النص القرآني. فتلتقي اعمال المفسرين للنص القرآني مع بعض الأصول المعتمدة في علم لغة النص الحديث.

إنّ غيبة التعريف بالنص لا تعني عدم معرفة العرب به أو عدم وجوده في العربية؛ فقد تناول العرب النص ومارسوه، وإن اختلف المنهج المتبع. فالتعريف غائب لكن ممارسته حاضرة. "لم يعرف العرب في تاريخهم ممارسة نصية كما عرفوها مع القرآن. ولعل أولى مظاهر هذه الممارسة ... تكمن في الوقوف على النص في ذاتيته النصية" (عياشي، منذر 1990: 202). ففي كتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني، أبي بكر (ت.403 هـ) نجده يفرط إفراطاً كبيراً في التأكيد على النظرة الشمولية للقرآن الكريم، ويؤكد أن خصائص الرشاقة والأسلوب، التي تتكرر في القرآن الكريم كله حيثما أنعمنا النظر؛ هي سبب الإعجاز ومصدره، وليس الإعلام بغيب.

إنّ ما جاء في كتب التفسير ومباحث علوم القرآن، في علم المناسبة الذي يختص بمناسبة الآيات والسور؛ يعد صورة مبكرة للانتقال من الوصف الجزئي لنظم الجملة إلى التحليل الكلي للنص. في مفهوم المباحث اللسانيات النصية. وقد مثل ذلك الإنجاز سبقاً للدرس اللغوي المرتبط بالقرآن على سائر المباحث النقدية والتحليلية. فالنص المقصود هو السورة الكريمة، التي تعرض المفسرون للحديث عن انسجام فاتحتها مع خاتمتها، وانسجام عنوانها مع مضمونها، وانسجام موقعها وترتيبها مع ما تقدم عليها أو تأخر عنها من سور القرآن. ولم يكتفِ هؤلاء المفسرون بهذه المظاهر العامة للمناسبة؛ إنما أشاروا إلى عدد من الوسائل المعجمية والنحوية والدلالية والتداولية التي تساعد قارئ النص القرآني ومتلقيه على التعبير عن ما يشعر به من اتساق وانسجام بين آيات القرآن (المؤيد، عبد الوهاب يحيى أحمد 2005). يقول الحقُّ تعالى في افتتاح سورة المؤمنون: (قَدْ أَفْلَحَ المؤْمِنُونَ) [المؤمنون: 03]، و يقول تعالى في خاتمة السورة: (إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ) [المؤمنون: 117]. فالتماسك بين فاتحة السورة وخاتمتها واضح لا يحتاج إلى بيان؛ فالفاتحة حديث عن المؤمنين، والخاتمة بيان لمن يخالف صفات المؤمنين؛ حتى قال الزمخشري: فشتان بين الفاتحة والخاتمة (رشيد، عمران 2007).

يقول الزركشي في (البرهان، 37/1): "فالمصحف كالصحف الكريمة ،على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف ... والذي ينبغي في كل آية، أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة. ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم. وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له". وهذا واضح تماما، في أن علماء المسلمين لم يقفوا عند حدود الجملة، بل تعاملوا مع النص؛ الذي يمثل في هذه الحالة السورة وما قبلها وما بعدها من السور، لتنتظم في القرآن كله كنص واحد.

لقد نهج علماء التفسير في تفسيرهم لسور القرآن الكريم فكرة نحو النص، حين طبقوا مفاهيم معايير النص قبل ولادة النظرية، فدرسوا الربط والتماسك الدلالي ودرسوا الإخبار أو الإعلام والقصد، إبان تحدثهم عن أهداف ومقاصد القرآن، وما يستفاد من السور. ودرسوا معيار المقامية حين تحدثوا عن أسباب النزول، ودرسوا التناص (القرآن يفسر بعضه بعضا)، والمقبولية التى تتمثل فى مراعاة أحوال المخاطبين، بل إن علماء التفسير جعلوا كل سورة نصا مستقلا، وكل نص من هذه النصوص ينضوى ضمن نص أكبر هو النص القرآنى بجميع سوره (عبد العزيز، وحيد الدين طاهر ب ت، ص: 50). إن ما قام به الزركشي ومن بعده السيوطي في كتابه "أسرار ترتيب القرآن" ليقترب جداً من التطبيق العملي لبعض أسس تماسك النص. وعليه فإنَّ التماسك النصي علم قديم في أصوله جديد في أسلوبه، وهو الامتداد الطبيعي لعلم النحو. وكان اللغويون العرب القدماء على وعي بكثير من أصوله.

ولقد أخذ علماء أصول الفقه في تأسيس قواعد لتناول النّص قراءة وتأويلا. فقد تناولوا في دراساتهم المستويات الثلاثة لبناء "الخطاب القرآني" كنّص، وجمل، ومفردات. وهو إلى جانب علم التفسير؛ من العلوم الإسلامية الذي تجاوز الجملة لتقعيد دراسة النّص بشكل منهجي. فالمهمة التي نذر أصول الفقه نفسه لها منذ البداية هي النّص، وليس تقعيد اللغة؛ التي تعتبر بالنسبة له مقدِّمات ضرورية (عياشي، منذر 1996: 22). وعندما تقدم البحث فيه، تكشّف عن مناهج متعددة (اعتزالية، حنفية، شافعية، وغيرها)، عبرت عن ثراء علم الأصول في دراسة النّص القرآني. وكان ينظر إلى أصول الفقه كوسيطٍ بين الأحكام العملية والنص الشرعي. فمهمتّه كانت ترى دوماً في بحث الأحكام العملية، وكانت نزعته المذهبية تدعم آفة العمل الفقهي "الاجتزائي" كآلية تلتقي مع المنهجية التقليدية في التفسير (عبد الرحمن الحاج 2011).

استطاع التفسير الموضوعي أن يكشف عن موقف القرآن الكريم من موضوع ما على طول نصه، دونما تناقض أوتعارض، وأنه يجنّبنا تكرار التعرض للموضوع ذاته، إذا تتبعنا طريقة التفسير بترتيب المصحف. فالتفسير الموضوعي يبرز لنا مدى تماسك بنيان النص القرآني وإحكامه، في وحدة السورة الموضوعية وترتيب آياتها وتناسبها مع ما قبلها وما بعدها تناسبا عجيبا. ثم في تناسب ترتيب السور في المصحف رغم اختلافها في ترتيب نزولها. ثم في وحدة القرآن الكريم كله. ولا شك في أن هذا وجه من وجوه إعجاز القرآن لمن يعتبر.

وهكذا أيضاً تتضح ملامح النظرية النحوية النصِّية بشكل جلي عند عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في تحديده مفهوم النصّ، وقواعد تشكيل النصّ بالتزامه منهجاً فكرياً منظَّماً. فالنصُّ باصطلاح الجرجاني هو (النظم)، أو التضام. وإنَّ بناء النصِّ وإنتاجه لا يكون إلَّا بقوانين وآلياتٍ خاصة، هي قوانين النحو وأصوله. وذلك بقوله: "واعلم أنْ ليس النظم إلا أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك فلا تُخِلُّ بشيء منها" (رشيد، شيماء 2013).

وهكذا مارس علماء العربية القدامى النص، فكانت لهم أول ممارسة نصية واعية مع الكتاب المعجز. كذلك فشت الممارسة النصية لدى البلاغيين والنقاد القدامى، عبر اهتمامهم بالشعر والخطابة والرسائل وفنون القول المعروفة، وكلها جاءت عبر ممارسات نصية؛ أفرزت جملة من الآراء التي تدور في فلك الدراسات النصية المعاصرة. وإنّ ممارستي أبي بكر الباقلاني، وحازم القرطاجّني قد ارتقتا إلى مستوى الممارسة النصية، أي التعامل مع نصوص كاملة. حين قسّم القصيدة العربية إلى "فصول"، زعم أن لها أحكاماً في البناء، وأدرك الصلة الرابطة بين مطلع القصيدة، وما سماه بالمقطع، وهو آخرها الذي يحمل في ثناياه الانطباع الأخير، والنهائي، عن القصيدة" (خليل، إبراهيم 1997: ص55-56).

فرغم شيوع النظرة الجزئية في أكثر الدراسات القديمة، التي دارت في إطار نحو الجملة؛ فإننا نجد لدى عدد كبير من مفسري القرآن الكريم، نظرات صائبة وتحليلات دقيقة تدخل في إطار علم النص. حين تحدثوا عن المناسبة بين آيات القرآن وسوره، وخصصوا في ذلك كتبًا مثلما فعل البقاعي في "نظم الدرر"، والسيوطي في "تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور". تحدثوا فيها عن تماسك آيات وسور القرآن، وصدروا في ذلك عن مبدأين مهمين: أحدهما أن القرآن يفسر

بعضه بعضًا، والثاني أن سياق القرآن كالسورة الواحدة (عبد العليم، مصطفى أحمد. 1983: 3). وهذا يكشف عن الخطأ الذي وقع فيه بعض المحدثين الذين عدوا البلاغة العربية القديمة جهازًا أو نظامًا معطّلا لا يرقى إلى مستوى الممارسة النصية التي تتعامل مع نص أو خطاب كامل (شاهين، عبد الخالق فرحان 2012).

الخاتمة:

كان لعلماء المسلمين القدامى ممارسات نصية لم يسبقهم إليها أحد، إذ كانت لهم أول ممارسة نصية واعية مع الكتاب المعجز. ثم انتشر منهج التعامل مع النص، عبر توظيف النقاد والبلاغيين العرب طاقاتهم اللغوية والأدبية في الشعر والخطابة وفنون القول. ما أدى إلى ممارسات نصية أفرزت جملة من الأفكار والآراء التي تدور في فلك الدراسات النصية المعاصرة. من ذلك ما قام به أبو بكر الباقلاني، وحازم القرطاجّني، فقد ارتقتْ هاتان المحاولتان إلى مستوى الممارسة النصية في التعامل مع نصوص كاملة. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

النتائج:

أ. إن العلوم النقلية تحتوي على تراث مهم كبير. نجد فيه بعض المقولات الأصولية متجاوزة في جوانب عديدة لمقولات تلك المناهج الأدبية واللسانية الحديثة؛ مثل ذلك علم الأصوات، وعلم المناسبة، وعلم القراءات القرآنية. كما إنها في الوقت نفسه قاصرة عنها في جوانب كثيرة أيضاً. ومع ذلك تبقى تلك المناهج قادرة على قراءة مشروعة بحدّ ذاتها، بالاستفادة من القراءات المعاصرة؛ إذا ما تمّ تجنّبت صيغتها الوضعية.

ب. المناهج التراثية عبّرت عن جهود متميزة في زمانها، إذ بنيت داخل لغة النص، في ضوء معايشة القرآن الكريم، وعلى وعيّ حقيقي لمفهوم "النص"؛ تضمنت الكثير مما لم يتم استنفاذه أو الاستفادة منه. ولا شك أن تجاهل أو تجاوز ذلك الإرث الأصولي الضخم خسارة علمية جسيمة في حق مناهج البحث والتأويل المعاصرة في قراءة النّص القرآني، أو في الدراسات الأدبية المعاصرة.

ج. العلماء القدماء كانوا على قدر كبير من الدقة والعمق في تناول الموضوعات اللسانية، وعلى جانب أكبر من استيعاب ظواهر اللغة وفهم قوانينها.

REFERENCES

Abdel-Karim, Jamman. (2007). *Mafhum al-Nass*. Published in Montada al-Lissaniyat al-Arabiyah.

Abdul Alim, Mustafa Ahmed. (1983). *Al-Alaqat al-Nassiyah fi al-Quran: Dirasatun Nahwiyyah li Juhud al-Mufassirin*. Journal of the Faculty of JArabic Language. Cairo: Al Azhar University.

Abdul Aziz, Wahid al-Din Taher. (n.d.). *Al-Nudhum wa Tadhfur al-qrain wa Nahu al-Nass: Bhth fi gthur al-Nadhariya wa Aa'nasir Mukwinatuha*. Egypt: Faculty of Arts, Qena, University of jnub al-Wadi.

Abdullah, Ayad. and others. (2016). *Disorder of the Text Grammar Theory's Standards in Arabic: Coherence & Cohesion Terms*. IJASOS-International E-Journal of Advances in Social Sciences, Vol. II, Issue 5, August 2016.

Abu Zeid, Nasr Hamid. (1994). *Naqd al-Khitab al-DinI*. Egypt, Cairo: Sina Publishing.

Afifi, Ahmed. (2001). *Nahw al-Nass Itijah Jadid fi al Dars al-Nahwi*. Cairo: Zahraa Al Sharq Library.

Al Haj, Abdul Rahman. (2011). *Zahirah al-Qiraa' al-Mua'asira lil Qur'an wa Ideologiyya al-Hadatha*. Article published in Dialogue Today, 08/07/2011.

Al-Baqalani, Muhammad ibn al-Tayeb Abu Bakr (D. 403 H). *I'jaz al-Quran*. Tahqiq Syid Ahmed Saqr, Egypt: Dar Al Ma'arif.

Al-Faqi, Subhi Ibrahim. (2000). *Ilm al-Lught al-Nassi bayn Nadhariyat wa al-Tatbiq*. Cairo: Dar Quba.

Al-Istrabahi, *Muhammad ibn al-Hasan al-Razi (D. 686 AH). (1395H). Sharh Shafiya Bin Hajib Maa' Sharh Shawahidihi li al-Alim al-Jalil Abdul Qadir al-Baghdadi Sahib Khizanah al-Adab*. T'hqiq Mohamed Nour El Hassan, Mohamed El - Zafzaf, Mohamed Mohy El Din Abdel Hamid, Beirut: Scientific Book House.

Al-Jabri, Mohamed Abed. (1991). *Al-Turath wa al-Hadathatu: Dirasat wa Munaqashat*. Casablanca: Arab Cultural Center.

Al-Jarjani, Ali bin Mohammed bin Ali al-Sharif al-Husseini (D. 816). *Kitab al-Taarifat*. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Al-Jundi, Anwar. (1982). *Al-Fus'ha Lughat al-Qur'an.* Beirut: The Lebanese Book House for Printing, Publishing and Distribution

Alkasho, Saleh. (1985). *Madkhal fil Lissaniyat*. Tunisia: Arab Book House.

Al-Moayyed, Abdul Wahab Yahya Ahmed. (2005). *Insijam al-Nass al-Qur'ani: Dirasatun Nassiah min Khilal Tafseer Ibn Ashour al-Tunisi*. PhD thesis, University of Khartoum, Sudan.

Al-Zarkashi, Badr al-Din (D. 794). (1376 H / 1957). *Proof in the sciences of the Koran*. T'hqiq Mohammed Abu Fadl Ibrahim. House of revival of Arabic books, Issa Al - Babi Halabi and his partners. Beirut: Dar Al Maarefa

Al-Zubaidi, Abu Al-Fayadh Mohammed bin Mohammed bin Abdul Razzaq al-Husseini. (N.D.) *Taj al-Aruss*. Tahqiq Abdul Karim Al-Ezbawi. Kuwait: Kuwait Government Press.

Anis, Ibrahim. (nd). *Min Asrar al-Lughat*. Cairo: Press of the Arab Statement Committee

Asaqir, Hatem. (1997). *Al-Tatwor al-Nadhari lil Tahlil al-Nassi*. Arab Journal of Culture. Issue 32. Year 16.

Ayashi, Abub. (2010). *Simya'ayat al-Jasd fi Tuqus Kanawah: Bath al-Hawiyah wal Imtidad*. Anfass Net, November.

Ayashi, Mundhur. (1990). *Maqalat fi al-Uslubiyyah*. Damascus: Arab Writers Union.

Ayashi, Mundhur. (1996). *Al-Lissaniyat wa al-Dalalat, al-Kalimah: Dirasat al-Lughawiyah*. Syria, Aleppo: Center for Civilization Development.

Boudra', Abdel Rahman. (2007). *Min Qadhaya al-Nadhariyah al-Lughawiya al-Arabiyah*. Vol. 28, no. 267.

Bougherra, Noman. (2007). *Nahu al-Nass Mabadiahu wa Itijahat al-Asasiyyah fi Dhaw' al Nadhariyah al-Lisaniyah al-Hadithah.* Vol. 61, no. 16, Jeddah.

Boutera, Abdel Hamid. (2012). *Al-Ihalat al-Nassiyyah wa Atharuha fi Tahqiq tamasuk al-Nass al-Qur'ani*. Majallah Ather. Feb. Special edition, University of al-Wady, Algeria.

Ibrir, Basyir. (2007). *Mafhum al-Nass fi al-Turath al-Lisani al-'Arabiy*. Majallah Dimasyq. Vol. 23, no. 1.

Khalil, Ibrahim. (1997). *al-Islubiyyah wa Nadhariyyah al-Nass: Dirasat wa Buhuth*. Beirut: Arab Institute for Studies and publishing.

Magmouli, Ismail. (2004). *The Term in the Arab-Islamic Heritage*. Majallah al-Turath al- Arabi, no. 93-94 Syria.

Masadi, Abdel Salam. (1982). *Al-Uslubiyyah wal al-Uslub*. Beirut: The Arab Book House.

Mounir, Walid. (1997). *Al-Nass al-Qur'ani min al-Jumlah ila al-Alam*. Taqdim Taha Jaber al-Alwani. Cairo: International Institute of Islamic Thought.

Rachid, Shaima. (2013). *Dirasat al-Nawasikh fi Dhaw' Ru'yah Jadidah*. Article published in the Arabic language forum on Internet.

Rashid, Imran. (2010). *Al-Lisaniyyat al-Nassiyha Dawa'i at-Ta'sis wa al-Ahammiyyah*. Nizwa magazine, no. 62.

Saleh, Abdul Rahman al-Hajj. (1993). *Al-Jumlah fi Kitab Sibawayh*. Al-Mabarz Magazine, School of Literature and Humanities, no. 2, December.

Saraye, Yaseen. (2007). *Muqarabah Nahu al-Nass fi Tahlil al-Nussus: Qira'at fi Wasa'il al-Sibk al-Nassiy*. Journal of Human Sciences, No. 35, February.

Shafei, Mohammed bin Idris. (1990). *Al-Risalah*. Tahqiq Ahmed Mohammed Shaker, Beirut: Dar al-Kuttab Al-Alami, Cairo: Mustafa Al- Babi Al-Halabi Printing Press.

Shaheen, Abdul Khaleq Farhan. (2012). *Usul al-Ma'ayir al-Nassiyah fi al-Turath al-Naqdi wa al-Balaghi Inda al-Arab*. Master Thesis. Faculty of Arts, University of Kufa.

Yusuf, Ahmed. (2008). *Al-Nass bayn al-Mantuq wl Maktub: Dirasah Lissaniyah Tatbiqiyyah*. Master dissertation, Asia Panty.